مقدمة

الليبرالية تعنى التحررية . . .

التحررية من ماذا؟ . . . علينا قراءة هذا الكتاب لنعرف الإجابة . . .

ظهرت الأفكار الليبرالية فى أوروبا كرد فعل على الاستبداد الذى تسلط على الأوروبيين قرونًا طويلة .

كان هناك الأباطرة ، والملوك والأمراء والإقطاعيون وأصحاب النفوذ من ناحية . . وكانت هناك المؤسسة الكاثوليكية ، وعلى رأسها البابا وكبار رجال الكنيسة من ناحية أخرى .

تحالف الأباطرة والبابوات أكثر الوقت ، ولكن اختلفوا حتى تصارعوا فى أوقات أخرى . وبصفة عامة ، قسمت أوروبا الكاثوليكية الناس إلى ثلاث فئات : الأولى : عامة الناس : ويتكفلون بجميع أنواع الأعمال . والثانية : أمراء الإقطاع صعودًا إلى الملك والإمبراطور : ويتكفلون بالحراسة والقتال . والثالثة : البابا ورجال الكنيسة بالنيابة عن المسيح ويتكفلون بالأرض [ومن هنا نشأت نظرية الحق الإلهى للملوك فى الحكم ، والتى استمرت فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر ، وفى بعض الحالات حتى القرن التاسع عشر] .

استتب الأمر داخل السلطة الزمنية ـ على ما كان فيه من طبقية وظلم ـ معظم

فترات التاريخ الأوروبى، رغم تمردات وعصيانات واشتباكات عديدة، إلى أن بدأت بذور الثورات والتحولات الأوروبية فى نهاية القرن السابع عشر فى إنجلترا، ونهاية القرن الثامن عشر أولاً، وثانيًا قبيل منتصف القرن التاسع عشر فى فرنسا، وإلى منتصف القرن العشرين فى إسپانيا.

أما السلطة الروحية، فقد كانت أكثر انضباطًا وانتظامًا، لطبيعة الكنيسة الكاثوليكية الهيراركية (الهرمية)، والاعتقاد السائد بعصمة البابا، رغم أنه كان هناك كثير من الصراعات على منصب البابا، حتى جاء وقت كان فيه بابوان، بل ثلاثة.

تقاسمت السلطة الزمنية والسلطة الروحية كل الصلاحيات والماديات، بالإضافة لسيطرة الكنيسة الدينية، والفكرية بصفة عامة، حتى فى مجال العلوم، مع ما تمتعت به من فرض العشور على الأوروپيين، حتى صارت الكنيسة أغنى مؤسسة أوروپية، وتملكت أجزاء معتبرة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا وإسپانيا وغيرها، تراوحت بين ٢٠ إلى ٤٠٪.

لم يكن لعامة الأوروپيين حرية العمل والتنقل والتجارة.. وبالطبع لم تكن لهم حرية العبادة، ولا حتى حرية قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم ولا اقتنائه.. فذلك كان حكرًا على رجال الكنيسة.

بدأت شرارات التغيير من احتكاك الأوروپيين بالشرق.. الشرق الأوسط والشرق الأقصى.. الصين والهند، والشرق القائم فى الغرب... فى الأندلس.

وبدأ التغيير الحاسم فى تاريخ أوروپا فى مطلع القرن السادس عشر

بمعارضة القس الألمانى مارتن لوثر للممارسات الكاثوليكية، وأولها صكوك الغفران، ومعجزات القسس فى العشاء المقدس. تصاعد اصطدامه مع البابا حتى أنكر عصمته، وأطلق مارتن لوثر كلمته الشهيرة - التى ما زال يرددها كثير من البروتستانت الإيڤانجليكيين وكل الأصوليين منهم - البابا عدو المسيح!

انتهى الأمر بالقس الكاثوليكى المصلح الثائر إلى أن أسس طائفة جديدة: البروتستانت.

أفاد التحرر من سلطة البابا فى التحرر التدريجى من نظرية الحق الإلهى للملوك فى الحكم، وبمرور الزمن، تخطى ذلك إلى التحرر من مذهب المركانتيلية، الذى ساد فى أوروبا حتى القرن التاسع عشر، وعملت الحكومات والإمارات بمقتضاه على جمع أكبر كمية من الذهب والفضة، وعلى زيادة الصادرات بأقصى ما تستطيع من دعم لها، وتقليل الواردات، بأقصى ما تستطيع من فرض حماية وقوانين وضرائب عليها، وهيمنت على الاقتصاد الناشئ وحركة التجارة(*).

ظهرت الأفكار الليبرالية فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتمحورت فى بدايتها على حرية العمل والتجارة والتنقل، وحرية التملك.. فكل ذلك لم يكن متاحًا لعامة الناس.

كذلك تطورت فكرة حرية العبادة فى أوروبا لتترك الناس أحرارًا فى أن

(*) ولذلك فهناك كتابات غربية كثيرة تربط بين البروتستانتية والرأسمالية، أو البروتستانتية والتقدم والحضارة.

يكونوا كاثوليكًا أو بروتستانتًا، فى القرن التاسع عشر، فقبل ذلك لم تكن تلك الحرية مكفولة بين الطائفتين المسيحيتين فى أوروبا..

فقد سنت كل من إنجلترا وفرنسا قوانين لاضطهاد الكاثوليك فى الأولى والبروتستانت فى الثانية، واستمر العمل بتلك القوانين حتى نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وإلى ما يقارب منتصفه.

ويلفت نظرنا كتاب «رسالة فى التسامح» للفيلسوف الإنجليزى چون لوك، والصادر فى مطلع القرن الثامن عشر؛ حيث يتحدث عن فضائل التسامح وميزاته، ثم ينهى رسالته بأن هذا التسامح لا يمكن أن يمتد للكاثوليك، ولا اليهود ولا المسلمين، فهو يتكلم عن التسامح بين طوائف البروتستانت فى إنجلترا!

أما عن اضطهاد البروتستانت فى فرنسا، فمن يريد الاستزادة، فيمكنه قراءة الفصل المعنون «ضمير أوروبا» فى موسوعة قصة الحضارة للأمريكى ول ديورانت؛ حيث يصف التعصب الطائفى بين المسيحيين فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ـ الجزء ٣٨، الفصل ٢٢، ص ١٧٨ ـ ١٩٣.

لم يكن فى برنامج الليبراليين الأوائل مفهوم الديمقراطية، ولا عموم الشعب، وذلك واضح من فكر چون لوك، ومن أقوال بنيامين فرانكلين وچون آدمز فى أمريكا، بل رأى بعض المفكرين سابقًا وحاليًا أن الليبرالية لا تتوافق مع الديمقراطية.

كان المحور الأول فى الليبرالية هو حرية العمل والتجارة والتنقل، والمحور

الثانى هو حرية التملك والحفاظ على الأملاك، سواء من تعدى الملوك والحكومات والإقطاعيين وأصحاب النفوذ، أو الكنيسة.

مع ظهور الطبقة الوسطى، بدأت أفكار الديمقراطية تظهر، ومعها المطالبة بمد حق الاقتراع ليشمل جميع المواطنين. تحقق ذلك فى معظم دول أوروبا الغربية من مطلع القرن العشرين إلى منتصفه، وفى الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

تطورت مفاهيم الليبرالية، ومعنى مصطلح الليبرالية، بطرق مختلفة فى كل من أوروبا والولايات المتحدة.. ففى البداية كانت هناك الليبرالية الكلاسيكية أو التقليدية، ثم صارت لدينا الليبرالية الاشتراكية كرد فعل على الليبرالية الاقتصادية.

بعد ذلك جاءت الليبرالية الجديدة (New Liberalism).. والليبرالية الثقافية.... ثم بعد ذلك الليبرالية الحديثة (Neo Liberalism)..

وغير ذلك...

جاء كل من ذلك تحررًا من سيطرة ما أو استبداد ما طبقًا للمسار الخاص لدولة ما.. ولحل مشاكلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية..

واليوم... بينما ترى أوروبا الغربية أنها ليبرالية فى معظم المجالات... ثقافيًا وسياسيًا واقتصاديًا... ـ برغم العنصرية العرقية والدينية الواضحة بها، وبرغم أن الأحزاب الليبرالية فشلت فى جمع الأصوات الكافية لتشكيل الحكومات فى أوروبا منذ عشرات السنين ـ... يستخدم الأمريكيون مصطلح ليبرالى كنوع من الوصف الازدرائى، فيما عدا مجال الليبرالية الاقتصادية...

فالولايات المتحدة محافظة بصفة عامة، وجسد ذلك ريجان وبوش الابن فى فتراتهما الأربعة . . .

هناك ليبرالية ثقافية تنفى مفهوم الوطنية تمامًا، وتعتبر أنها قيد استبدادى مثل قيد الدين وما إليه . . .

ويرى بعض الليبراليين الدوليين أن من حق القوى الليبرالية العظمى أن تتدخل فى شئون الدول الصغرى أو الضعيفة لفرض المبادئ الليبرالية كما يرونها . . . مما يجعل ليبراليتهم جديرة بلقب الليبرالية الدكتاتورية . . .

يبحث هذا الكتاب الصغير فى الليبرالية كل ما سبق، بأسلوب سهل ومختصر .

عادل المعلم

obeikandl.com

تمهيد

الليبرالية: أيديولوچية، فلسفة سياسية [وفكرية واقتصادية] تعتبر الحرية قيمتها الرئيسية.

وللتوسع فى الحديث، فإن الليبرالية تسعى إلى مجتمع يتسم بحرية الأفراد فى التفكير، ووضع قيود على نفوذ الحكومة والعقيدة (وأحيانا مؤسسات الأعمال)، وتقوم على سيادة القانون، وتبادل الأفكار بحرية، واقتصاد سوق يدعم المنشآت الفردية، ونظام حكومى شفاف. هذا النوع من المجتمعات يحبذ الليبرالية الديمقراطية المصحوبة بانتخابات حرة نظيفة، يكون لجميع المواطنين فيها حقوق متساوية بحكم القانون، وفرص متساوية لتحقيق النجاح. ترفض الليبرالية الدعاوى الأصلية التى سادت معظم النظريات المبكرة عن الحكومة، مثل: الحق الإلهى للملوك[1]، والأوضاع الهيراركية للتدرج الطبقى الصارم [الإقطاع][2]، و(الكنيسة المؤسسة ـ established church)[3]. تشمل حقوق الإنسان

(١) الذى ساد فى بلاد أوروبا حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر بل وامتد فى بعضها لفترات فى القرن التاسع عشر ـ المترجمة.

(٢) الذى مثله مثل نظرية الحق الإلهى للملوك، استمر فى بعض بلاد أوروبا حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ المترجمة.

(٣) مصطلح وراءه كثير من التفاصيل، والمقصود به عند نشأته، وألا تساند الحكومة طائفة پروتستانتية على أخرى، وذلك فى بريطانيا والولايات المتحدة، على وجه الخصوص ـ المترجمة.

الجوهرية التى يدعمها ويؤيدها كل المؤمنين بالليبرالية : الحق فى الحياة، والحرية، والملكية.

تختلف الليبرالية المعاصرة [خاصة فى أوروبا] عن الليبرالية التقليدية [أو الكلاسيكية أو الأولى أو الأصلية] فى العديد من الدول، من حيث أنها تؤكد على أن التدابير الحكومية الخاصة بتوفير الحد الأدنى من مستوى معيشة مادى يحقق رفاهية البشر، تأتى فى المقام الأول قبل الحقوق الفردية[1]. تمتد جذور الليبرالية إلى عصر التنوير الغربى[2]، إلا أن المصطلح يضم حاليا تنويعات من الفكر السياسى، مع وجود مناصرين يتجاوزون نطاقا سياسيا واسعا من اليسار إلى اليمين. ويشير مصطلح «الليبرالية» فى المجال الأكاديمى فى سياق الاقتصاديات إلى ليبرالية اقتصادية.

(١) بدأت الولايات المتحدة فى التخلى ـ بدرجات متفاوتة حسب اتجاهات الرئيس والكونجرس ـ چورج بوش الإبن فى ولايتيه ـ المترجمة.

(٢) ظهرت الأفكار الليبرالية الرئيسية فى عصر التنوير، ومنها: حرية العمل، حرية التجارة، حرية العبادة والعقيدة، أو الدين، حرية الملكية ـ وكل ما سبق كان معمولاً به فى كثير من أنحاء العالم، ومنه على سبيل المثال العالم العربى، وقبل قرون طويلة من عصر التنوير الأوروبى ـ وحرية الرأى وحرية التجمع، وأيضًا حرية الرأى لم تكن بدعة فى بقية العالم وقت بزوغ عصر التنوير الأوروبى ـ المترجمة.